

الفصل الخامس

الإمبراطورية البابلية الجديدة

تقهقرت قوى الميديين (والأماناماندا) بعد أن حملت الغنائم والمنهوبات من تلك المدينة الإمبراطورية. ولقد كانت جهود نابوبولاسر الآن مُنصَّبة على الحصول الفعلي والسيطرة على كل ما يمكن أخذه من الإمبراطورية الآشورية. ولهذا الغرض فقد استخدم عساكره لاحتلال منطقة نصيبين إلى الغرب من آشور فضلاً عن أواسط آشور نفسها والولايات الواقعة بمحاذاة الفرات الأوسط، وبذل مجهودات كبيرة لكسب ما استطاع من مناطق مملكة أورارتو، ولكن كان للمسكوتيين مصالح ومطامع في الأخيرة، وهكذا فقد فشل نابوبولاسر في السيطرة الدائمة على أي جزء من أجزائها ما عدا كيليكيا. أما بقية الجيش الآشوري فقد تركوه وشأنه في حرّان وذلك لأن أكثر اهتمامات نابوبولاسر إلحاحاً كان أن يحصل على السيطرة الفعالة على ما يستطيع أخذه من الإمبراطورية الآشورية قبل عودة الأماناماندا، الأمر الذي حدث عام ٦١٠ ق.م، وعندها قاموا بهجوم على حرّان ساهم به نابوبولاسر، وذلك حماية لمصالحه. ولم يحاول آشور - أوباليت الدفاع عن المدينة بل هرب جنوباً منتظراً قدوم حلفائه المصريين وترك حرّان ليحتلّها وينهبها الأماناماندا. ولقد قويت معنويات الآشوريين بقدوم حلفائهم المصريين فقاموا بهجوم معاكس على حرّان وقد حصلوا على نجاح مبدئي. ولكن وصول جيش تحت قيادة نابوبولاسر اجبر الآشوريين والمصريين على رفع الحصار عن حرّان وانسحبت قواتهما إلى كركميش. وفي هذه الأثناء نجح نيخو الثاني (٦١٠-٥٩٥ ق.م) في الاستيلاء على مصر فقررّ إجراء دعمٍ فعّال لآشور - أوباليت وأسرع في قيادة الجيش المصري الرئيسي متوجّهاً إلى سوريا. ويبدو أن الدبلوماسية الكلدانية قد أتت أكلّها وأدّت إلى حدوث نجاح مرموق في فلسطين وذلك لأن نخو اضطر إلى إخماد فتنة حصلت في غزة بينما حاول جوسيا

ملك يهوذا وهو الحاكم الوطني الوحيد في فلسطين التصدي للقوى المصرية في طريقهم إلى الشمال وقد هُزم وقُتل في مجدو (٦٠٧ ق.م) وبذلك أصبحت مملكته خاضعة للحكم المصري نتيجة لذلك. ولم يصادف نحو أية صعوبة في إخضاع سوريا والتقى مع قوات آشور - أوباليت وكركميش. ولكن البابليين وتحت قيادة أحد أبناء نابوبولاسر، وهو نبوخذ - ريزار Nebuchadrezzar قاموا بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي (٦٠٥ ق.م) ولقد حدثت مذبحة في كلا الطرفين فالرجل القوي قد تصدى للرجل القوي وكانت النتيجة أن حلت الهزيمة بالجيش المصري الذي توجه مسرعاً بشكل فوضوي إلى مصر وكان لهزيمة جيش مصر تأثير دعائي شعر به الجميع في طول البلاد وعرضها وشعرت الشعوب المقلوبة أنه لم يحن الوقت بعد للثورة ضد الكلدانيين وقالوا إن الفرعون ملك مصر ما هو إلا مجرد هراء وضجة لأنه قد أضاع فرصة ثمينة سنحت له. وهكذا استطاع نبوخذ - ريزار مطاردة المصريين المنسحبين حتى عقر دارهم. وكان باستطاعته الاستمرار إلى مصر لولا وفاة والده في تلك اللحظة الصعبة وهو نابوبولاسر وهذا يقتضي رجوع الابن إلى بابل. ليس من الضروري التأكيد على مقدرة نبوخذ - ريزار السياسية والعسكرية نظراً لأن أنشطته في هذا المجال جعلته أحد الشخصيات المرموقة في العالم القديم. ولقد اعترف به أرميا المعاصر له أنه القوة الجديدة في السياسة الدولية وقدّر أن إمبراطوريته الجديدة سوف تدوم مدة لا تقل عن ثلاثة أجيال. وأما يواقيم ملك يهوذا الذي عيّنهُ نحو فقد قدّم خضوعه لنبوخذ - ريزار عند انكسار الجيش المصري. ولكنه عاد للخضوع لمصر عندما حان الوقت لذلك. ولقد برهنت الحوادث أن أرميا قد قام بتقدير حكيم للأوضاع أكثر مما فعل السياسيون، وذلك لأن نبوخذ - ريزار قد أرسل جنوداً لحصار أورشليم. ولقد كان من حسن حظ يواقيم أن مات أثناء الحصار وذلك لأن ولده يواشين هو الذي أخذ أسيراً إلى بابل ومعه النبلاء والحرفيون والجنود.

لقد تأثرت التجارة المصرية تأثيراً سيئاً بوقوع جميع أراضي فلسطين وسوريا في أيدي معادية خصوصاً وأن التجارة المصرية كانت تستفيد من الموانئ الفينيقية وربما

ساعد هذا على تفسير قرار حوفرّا Hophra ملك مصر (٥٨٩-٥٧٠ ق.م) القيام بغزوه لفلسطين.. وأما في أورشليم وبقية المدن فقد أجبر رجال المدن المناهضون للسيادة البابلية على الانسحاب إلا أن نبوخذ - ريزار قد قام برد فعل قوي وانتدب جيشاً قوياً إلى الغرب وقد صادفت القوى المصرية نجاحاً مبدئياً فقد استولوا على صيدا وحوصرت أورشليم لمدة ثمانية عشر شهراً وأخيراً انتشرت المجاعة فيها (٥٨٠ ق.م) ولقد سُمِلت عينا زيدقيا ملك يهوذا فأصبح أعمى وهو آخر ملوك يهوذا وقد نُقِل إلى بابل وهكذا فقد حدث النهب والسلب في أورشليم وهُدمت حصونها وأعدم زعماء الجماعة الموالية لمصر وقد عُيّن أحد النبلاء الموالين لبابل حاكماً وقد هُجّر قسم كبير من السكان الباقين إلى بابل وقد أخضع بقية المدن المتمردة بنجاح وحوصر ميناء صور ولم يُشَر إلى هذه العملية من قِبَل ميناندر (٣٤٢-٢٩٢ ق.م) الذي ذكر أن هذه العمليات مستمرة خلال ثلاثة عشر عاماً، ولكن النبي حزقيال وهو معاصر للحوادث قد أشار إليها عدة مرات وقد صوّر حزقيال (صور) لأول مرة بأنها كانت معجبة بسقوط أورشليم وهذه إشارة إلى أن التجارة من مصر وما وراءها أصبح من الممكن أن تعود للنشاط شمالاً إما عن طريق القوافل خلال فلسطين أو عن طريق البحر إلى داخل الموانئ الفلسطينية.

وأخيراً استولى البابليون على مدينة صور عام ٥٧١ وعُيّن فيها إدارة بابلية لتلك الولاية وفي أثناء ذلك قام سواكسارس بدعم من حلفائه من الأماناماندا بالاستيلاء على مملكة أورارتو واندفع إلى آسيا الصغرى، حيث اصطدم بمملكة ليديا وكانت مركزاً تجارياً مزدهراً وقد حلت بعض الخلافات المبدئية عام ٥٨٥ ق.م وذلك بإجراء معاهدة نظمها أحد الضباط الذي ويدي - نابونيد أصبح خليفة لنبوخذ - ريزار فيما بعد وقد رسمت هذه المعاهدة الحدود ما بين مناطق النفوذ الليدية والميدية وفق مجرى نهر حاليس Halys.

لقد حافظ نبوخذ - ريزار على علاقات الصداقة مع الميديين وكانت مشاكله الرئيسية بالنسبة لمناطق السياسة الخارجية هي مصر. انسحب الجيش المصري تاركاً حلفاءهم وحيدين في مواجهة الجيش البابلي. ولقد كان لاهتمام نبوخذ -

ريزار بشؤون العرب أسباب عسكرية واقتصادية. هذا وإن اتحاد الميديين قد حرم بابل من السيطرة على التجارة الشرقية (مع أنهم لم يشعروا بهذه الصعوبات أثناء فترة شهر العسل التي تبعت هزيمة ونهب نينوى) بينما بدأت الموانئ البابلية التي كانت ناجحة بالتقهقر ولهذا السبب فقد بدأ الملوك البابليون الجُدُّ بالاتجاه إلى الغرب في محاولة لكسب الطرق التجارية التي كانت تأتي من بلاد العرب. أما مصر فقد تضررت تجارتها بسبب سيطرة البابليين على الساحل الفينيقي وكليكية، لذلك فقد كانت تحاول باستمرار إضعاف قبضة بابل على الغرب. وتذكر التوراة قضية اغتيال أحد الحكام الوطنيين الذي كان نبوخذ - ريزار قد عينه والياً على أورشليم وتذكر أن ذلك الاغتيال كان بموافقة إن لم يكن بتدبير المصريين. وأخيراً قرر نبوخذ - ريزار القيام بغزو مصر وذلك كما تذكر قطعة من لوح مسماري ويشار إلى تلك الغزوة في التوراة. ولم تعرف أية تفاصيل عن تلك الغزوة وتشير القصص التوراتية وأيضاً هيروdotus إلى حدوث هجوم ناجح على القبائل العربية والصعراء.

لقد كان حكم نبوخذ - ريزار متميزاً بالنشاط المعماري العظيم في بابل وإن البقايا الموجودة فعلاً في بابل (انظر اللوحة ٤٦ و ٦) هي من تلك الفترة. وقد عززت تحصينات بابل وأحكمت الخطوط الداخلية والخارجية لمناطق الدفاع ولقد أمنت الأنهار الموجودة على كلا الجانبين بالإضافة إلى سلسلة من القلاع في شمال وجنوب بابل خطاً دفاعياً قوياً حول المدينة:

عند وفاة نبوخذ - ريزار في عام ٥٦٢ ق.م خلفه ابنه أميل مردوخ وقد قتل هذا الابن بعد حكم قصير دام سنتين أثناء إحدى الثورات ولا يعرف إلا القليل عنه سوى ما ذكر في التوراة أنه أظهر عطفاً عظيماً على يهوه شين وهو أحد الملوك من ملوك يهوذا الذي احتفظ به في بابل، ومن الغريب أن هناك إشارة مباشرة ليهوه شين هذا في بعض الألواح المسمارية التي وجدت في بابل والتي يعود تاريخها إلى حكم نبوخذ - ريزار وتحتوي هذه الألواح على قوائم المخصصات المعيشية ونقرأ في إحداها ما يلي:

«يخصص يا - أو - كينا U-Ya-kino ملك بلاد يهودو ونخصص للأبناء الخمسة للملك بلاد يهودو ويخصص لثمانية من اليهود وكل واحد منهم نصف سيلا من الذرة».

ومن الواضح من تحليل علم اللغات أن يا - أو - كينا من ياهودا هو دون شك الاسم الذي أطلقه مترجمو التوراة على يهوشين ملك يهودا.

إن الرجل الذي استفاد من موت ميل مردوخ كان نيرغال - شار - يوشور وهو صهر نبوخذ - ريزار. ومن المعروف الآن من التواريخ التوراتية أنه قام بحملة عظيمة عبر جبال طوروس ربما كان لتوقعه قدوم الميديين واندفاعهم عبر نهر هابس. وبعد نجاح مبدئي أصيب بنكسة خطيرة وعاد إلى بابل عام ٥٥٦ ق.م، حيث سرعان ما توفي هناك وهنا ربما يتساءل المرء إذا كان منافسوه الشخصيون في الوطن قد استفادوا من نكسته وخسارته فأسرعوا في إنهاء حياته. وبالتأكيد فإن ولده لاباشي مردوخ الذي حاول تسلم العرش بالوراثة قد عزل بعد وقت قصير بعد تمرّد قام به الضباط الكبار في الدولة الذين وضعوا مكانه نابونيد وكان هذا دبلوماسياً قد أرسله نبوخذ - ريزار للمساعدة والمفاوضات التي جرت ما بين الميديين والليديين عام ٥٨٥ ق.م.

لم يكن نابونيد من الأسرة الملكية لنابوبولاسر بل كان ابناً لأحد النبلاء وأمه الكاهنة العظمى للإله سن في حرّان. وكانت هذه السيدة من العائلة المالكة الآشورية لأنها قد ولدت في منتصف فترة حكم آشور بانيبال ومن المعروف أنه قبل وبعد هذا الزمن كانت وظيفة الكاهنة العليا لا تقدّم إلا للأمراء والأميرات من العائلة المالكة.

بعد نشر بعض النقوش الجديدة خلال الثلاثين سنة الماضية أصبح من الواضح أن هذا الملك كان رجلاً سياسياً ذا مقدرة فائقة فقد عرف المشكلتين الرئيسيتين اللتين ينبغي حلّهما وهما الصعوبات الاقتصادية في الإمبراطورية والوضع بالنسبة لديانة بابل القديمة. أما بالنسبة للمشاكل الاقتصادية، فإننا سوف نعالج هذا

الموضوع فيما بعد. ولكن وفي الوقت الحاضر، فإننا سنعالج المشاكل الدينية، إذ إنه وبالنسبة للميديين واليهود الذين كان البابليون متّصلين بهم اتصالاً وثيقاً، لقد نشأت مفاهيم جديدة دينية وعرقية عند هؤلاء تشمل الهزء بما كان من تعدد الآلهة وبناءً على هذه المفاهيم فقد قرر الملك نابونيد أن يجعل إله القمر سن أو نانا الذي كان الإله المقدس في أور وحرّان أن يجعله الإله الرسمي السائد في جميع أنحاء الإمبراطورية ولم يكن يعني بذلك الاعتراف بحركة الوحدانية، إذ لم يكن هذا وارداً في ذلك الزمن بل كان عبارة عن محاولة لتوحيد المعتقدات الدينية لدى جميع الشعوب الخاضعة لبابل. أما الإله البابلي العظيم وهو مردوخ الذي كان المتسلط في بابل نفسها فلم يكن له مكان أو وجود في مجموعة الآلهة عند العرب والآراميين، بل كانوا يقدرسون إله القمر ويطلقون عليه أسماء مختلفة ولكن الميل نحو إصلاح ديني قد بدأ خلال حكم نبوخذ - ريزار نظراً لأن الحفريات في (أور) قد كشفت أنه وخلال حكم ذلك الملك حدث تغيير في مقام زوجه إله القمر في صفاته المعمارية وكذلك في طقوسه الدينية، إذ إن نابونيد كان هو المسؤول عن هذه البدع والتغييرات.

وهناك نقطة التّقَّتْ فيها المشاكل الاقتصادية الدينية وهي مدينة حرّان، إذ إن اسم حرّان معناه الطريق وقد أطلق هذا الاسم على ذلك المكان لكونه ملتقى الطرق الشمالية القادمة من بابل من جهة ومن مصر وبلاد العرب وفلسطين من جهة أخرى، وكان ذلك المكان أحد المقامات المقدسة للإله (سن) ولسوء الحظ فقد بقيت تلك المدينة خاضعة لأماناماندا منذ عام ٦١٠ ق.م عندما انحدر هؤلاء وخربوا معبد إله القمر. ويروي نابونيد في بعض النقوش أنه وفي السنة الأولى لحكمه ظهر الإله العظيم (سن) له في أحد أحلامه وهو يقول: (أسرع في بناء إهولهل Ehulhul دار الأفراح العظيمة) وهو معبد سن في حران مع العلم أن جميع أراضيه قد أصبحت تحت تصرفك». وفي النسخة من تلك النقوش الشائعة في بابل فإن نابونيد يتوجه بعد ذلك إلى مردوخ. فهو يقول (بالنسبة للمعبد الذي تأمرنا ببنائه، فإن شعب الأماناماندا يحيطون به ويسيطرون عليه، وهم ذوو قوة مخيفة) ولكن مردوخ ينطق بردّ مدهش:

«إن شعب الأماناماندا الذين تذكرهم مع أراضيهم وملوكهم وحلفائهم لم يعودوا موجودين. ففي السنة الثالثة الآتية سوف أجعل قورش ملكاً لأشان (بلاد فارس) وهو سوف يطردهم وسوف يبعد ويخرج بجنوده القلائل شعب الأماناماندا الكبير».

لقد كان الفرس أحد القبائل الهندو - أوروبية المهاجرة التي استقرت أخيراً في عيلام. ولقد تأسست عائلتهم الملكية في منتصف القرن السابع ق.م. وذلك بعد أن تغلب آشور بانيبال على الأسرة العيلامية على يد أشامنيز Achaemenes الذي اتخذ ابنه لقب ملك اشان وكانت اشان أصلاً إحدى إمارات مملكة عيلام وكان اللقب الجديد يعني سلطته على تلك البلاد القديمة. ولقد أدى تصاعد قوة مملكة الفرس إلى أن عمد الملك الميدي استياغيس Astyages إلى تزويج ابنته إلى قمبيز الأول وهو الملك الثالث في أشان. ومن هذا الزواج ولد قورش Cyrus.

ويبدو أنه مهما كانت العناصر العرقية التي تدل على أصل شعب الأماناماندا، إلا أنه وطبقاً لأحلام نابونيد فإن هذا الشعب يرجع في تاريخه إلى إحدى الحاميات التي كان يسيطر عليها الميديون Medes ويوضح لنا ذلك الحلم أيضاً أن التقاليد القديمة التي تشير إلى العلاقات الدبلوماسية ما بين العائلات الحاكمة في بابل وعيلام كانت لا تزال مستمرة، نظراً لأن نابونيد وقورش كانا يحكيان الدسائس ضد الميديين خلال السنة الثالثة من حكم نابونيد أي عام ٥٥٣ ق.م. لقد أمر نابونيد بجمع العساكر في الولايات الغربية. ولكن الميديين قد انسحبوا من حران فاستطاع نابونيد أن يستخدم جنوده للبدء في مشاريع الإصلاح، مما سبب نشوء عصيان فيما بين المدن الكبرى في منطقة بابل، فقد نسي أبناء بابل وبورسيبا ونيبور وأور وإيريش ولارسا وشعوب المدن المقدسة (شمال بابل) واجباتهم وانخرطوا في الدسائس والخيانة بدلاً من الطاعة والولاء. وهناك شواهد تدل أن نابونيد كان مستعداً لعمل من هذا النوع، فقد كان هذا الملك يمتلك ضيعة كبيرة في جنوب بابل وتذكر العقود الموجودة في محفوظات المعابد أنه وفي أول أيام حكمه فقد سلم السيطرة على هذه الضيعة لقاء تسلّم هذا الملك لدفعات سنوية من المال سلطات إينا Enna وهي مجموعات المعابد العظيمة والغنية في إيريش، وفي هذا الوقت بدأت

الإصلاحات الإدارية للمعابد تجري على قدم وساق وهي إيريش حدثت تعيينات جديدة وتغيرات في المراكز العليا وذلك في أوائل سنوات حكم نابونيد.

لقد ظهرت المجاعة الآن في بابل والتي كان نابونيد يعزوها إلى عدم التقوى التي كان يتمتع بها هذا الشعب مع أن سببها الأحوال الاقتصادية العامة. إذ إن حروب وأنشطة البناء التي قام بها نبوخذ - نيزار ونيري غلسار قد سببت نوعاً من التضخم المادي فارتفعت أسعار المواد خمسين بالمئة بالنسبة إلى ما كانت عليه ما بين عام ٥٦٠ وعام ٥٥٠ ق.م ولكن الميل نحو ارتفاع الأسعار لم يتوقف بالتطورات والإصلاحات الجارية، بحيث وصل الارتفاع فيما بين عام ٥٦٠ ق.م وعام ٤٨٥ ق.م إلى ٢٠٠٪ وتُرى النتائج في الوثائق الاقتصادية التي تروى إحداها، وهي مؤرخة في السنة الأولى لحكم نابونيد أن قرضاً قد مُنح لأحد رعاة المواشي عندما كانت مواشيه تكاد تنفق جوعاً. وهناك نصوص تشير إلى تسليم الأطفال للمعابد كعبيد وهذه نتيجة واضحة للفقر المدقع هذا وإن تحول عمل العمال لمدة عدة سنوات من إنشاء الأبنية إلى بناء المعابد أو الأعمال الحربية يدل على انخفاض في إنتاجية الأرض. بينما تفاقمت تدهورات الحالة الاقتصادية بسبب سيطرة الميديين على الطرق التجارية إلى الشرق والشمال هذا وأن تحالف نابونيد مع قورش يشير إلى محاولة لإحراز نتائج إيجابية في هذا السبيل.

لقد أشرنا في النقوش أن نابونيد قلماً كان يذكر المظاهر الاقتصادية من أعماله ولذلك فقد حصل شك، فيما إذا كانت الشؤون الاقتصادية تحتل جزءاً من اهتماماته ولكن ومع ذلك فإن الوثائق الاقتصادية والإدارية من النوع المذكور أعلاه تبرهن دون أدنى شك أن نابونيد كان مُهملاً للمشاكل الاقتصادية، بل كانت نقوشه تهتم بإظهار تقواه وميوله الدينية أكثر من الفوائد الاقتصادية التي كانت غالبية في أعماله.

لقد كان تجاوب نابونيد مع أوضاع بابل ينحصر بمحاولة نقل مركز الثقل في الإمبراطورية تجاه الغرب، وذلك لتأمين الطرق التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب. ويعد أن وكل ابنه بيل-شار-يوشور كنائب للملك في بابل، قاد جيشاً خلال

سوريا إلى واحة تيماء إلى شمال غرب بلاد العرب، حيث أعدم الملك هناك وجعل المدينة قاعدة له خلال السنوات العشر التالية. وفي أثناء فترة الراحة والتوقف في الغرب، اندفع لمسافة مئتين وخمسين ميلاً لأقصى الجنوب خلال عدد من الأمكنة التي كان من الممكن تحصينها حتى وصل أخيراً إلى يثرب. وهي المدينة المنورة قرب شواطئ البحر الأحمر. ويذكر نابونيد أنه أقام الحاميات وزرع المستعمرات حول الواحات الست التي ذكر أسماءها، ويصف القوى التي استخدمها أنها من الشعب الأكادي وشعب (حاتي) أي كل من شعب بابل الوطني وشعوب الولايات الغربية. وهناك بعض القضايا الجانبية التي تذكر أنه ومن الواحات الست المذكورة تبين في زمن محمد (ﷺ) بعد ألف عام أنها كانت مسكونة من قبل اليهود ويقال إنه وبين العساكر والمستعمرين الذين رافقوا هذا الملك كان هناك فصائل قوية من اليهود مع أنه لا يُعرف إذا كان هؤلاء قد كانوا من الذين تركوا في فلسطين عند سقوط أورشليم أم هم من أولئك الذين هُجروا إلى بابل.

السنوات العشر التي انسحب فيها نابونيد من عاصمته، من الممكن أن تكون أساس تلك القصة المذكورة في التوراة عن السنين السبع التي أصيب بها نبوخذ - ريزار بالجنون. ومن الشائع أن تجد في بعض القصص حوادث تعود إلى أحد الرجال بينما تحولت إلى رجل مشهور آخر كان معاصراً له تاريخياً. مثل قتل (جوليات) على يد الحانان El-hanan التي يتمثل فيها داود بدلاً من الحانان وينسب الفضل له بدلاً من ذلك.

وهناك شكل آخر من القصص اليهودية وهو نزول الغضب الإلهي على الملك البابلي الجديد حيث يرتبط هذا الغضب باسم نابونيد بدلاً من نبوخذ - ريزار وذلك كما ظهر في الوثائق التي وجدت في قمران وتدعى لفائف البحر الميت.

إن الوثيقة ذات العلاقة وهي مخطوطة وُجد القسم الأكبر منها عام ١٩٥٥م وهي تعود إلى النصف الثاني من القرن الأول ق.م وهي جزء من عمل مكتوب باللغة الآرامية (وهي لغة قريبة من العبرانية) وبعد تنقيح هذا العمل يمكن ترجمته بما يلي:

«نذكر هنا الكلمات والصلوات التي تفوه بها نابونيد ملك آشور وبابل - الملك العظيم عندما أصابه مرض جلدي بغض طبعاً لمشئته الله ذي القدرة العالية وذلك وهو في مدينة تيماء حيث يقول: لقد أصبت بمرض جلدي خبيث لمدة سبع سنوات، ولكن وبعد أن اعترفت بذنوبي وأخطائي منحني الله القرار المحبب وكان هناك أحد اليهود من ... ولقد أخبرني أن أسبح بحمد الإله العالي الشأن والقدير»

وفي نهاية السنوات العشر، تغيرت الأحوال واستطاع نابونيد الذي كان قد بلغ السنة السبعين من العمر الرجوع إلى بابل، حيث لم تقابله أية معارضة لخطته التي ترمي إلى ترميم وتحسين المعبد العظيم في حرّان.

إن التحسينات المؤقتة في مركز نابونيد كان مصدرها قوة حليفه السابق قورش. إذ إنه وبعد اعتلاء قورش العرش، عرش إمبراطورية الميديين والفرس، إذا بالحروب تشب مرة ثانية في آسيا الصغرى وليديا. ولكن قورش فاجأ العدو بحملة غير متوقعة في فصل الشتاء عام ٥٤٧ ق.م وانتصر ونجح في الاستيلاء على عاصمة كروسيوس Croesus وهي ساردس Sardes وهكذا أصبحت ليديا ولاية فارسية تتمتع بدعم المستعمرات اليونانية في غرب آسيا الصغرى. وعندما أصبح قورش حرّ التصرف استطاع القيام بعمليات استطلاعية ضد الإمبراطورية البابلية حين نفذ تلك العمليات ٥٤٧ ق.م فبسط نفوذه على جزء من مملكة آشور الشرقية. وبهذا العمل فإنه قد استبق هجوماً بابلياً على ميديا لأن المنطقة التي استولى عليها كانت تستعمل دوماً أثناء الفترة الآشورية كقاعدة لمثل هذا الهجوم، ويذكر هيرودوتس أن الملك كروسيوس كان متحالفاً مع نابونيد ومع المصريين وقد طلب المساعدة قبل تلك المفاجأة التي سببت سقوطه هذا وإن تطابق التواريخ بشكل عفوي جعلنا نفترض أن ذلك التهديد العسكري من الشرق هو الذي أنتج تلك الوحدة المؤقتة في بابل والطلب بإلحاح لعودة الملك لزعامته النشيطة. لقد كانت بابل الجنوبية ونظراً لوضعها الجغرافي معرضة لغزوات فجائية من عيلام وقد تعرضت لغزوة أخرى عام ٥٤٦ ق.م. ولكن الآن لقد أصبحت الحوادث مشوشة. إذ إنه من الممكن أنه، وبعد هذا الحادث، أن عاد نابونيد إلى بابل للإشراف على الدفاع عن بلاده. ولكن الوضع

لم يكن خطيراً ولا بحال من الأحوال. فقد بقيت إيريش وهي المدينة الرئيسية في الجنوب تحت تصرف نابونيد المطلق رغم حدوث الغزوة العيلامية ولم تقدّم سوريا ولا الغرب أية إشارة عن عدم الرضا مما يجعل المرء يستنتج مما قاله هيرودوتوس أن مصر كانت حليفاً محتملاً. ومع ذلك وبينما كان الملك العجوز منشغلاً بإنجاز إصلاحاته وترميماته التي خطط لها منذ عهد طويل للمعبد لهول في حرّان، كان قورش منشغلاً في أعمال دعائية خلال الإمبراطورية البابلية. وقد كانت معاملته الكريمة لكروسيوس ملك ليديا وللنواحي اليونانية في آسيا الصغرى حين أمر بعدم نهبها، كل ذلك قد أكسبه سمعة طيبة بأنه كريم ومتسامح ومتدين. ولقد انتشرت أخباره الطيبة والدعاية له في بابل مما أظهر المفارقة بينه وبين ما كتب عن نابونيد حين سقوطه. وفيما يلي ترجمه من كتاب سيدني سميث واسمه نصوص من التاريخ البابلي (١٩٢٤م) ص ٨٧، ولكن ولسوء الحظ كان ذلك النص مصاباً بأضرار فادحة ويقول النص عندما يذكر نابونيد ما يلي:

لم يسبب أي عمل فيه شيء من العدالة ليتقدم أمامه
فقد كان يقتل الضعفاء بأسلحته
وبالنسبة للتجارة فقد أقفل الطرق

وفي يوم الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة أمر بعدم إقامة أية احتفالات
لقد غيّر الشيطان

وقد صنع كل ما هو مسيء للمقدّسات
ولقد وضع تمثالاً كلّهُ كُفر على القاعدة
وسمّاه بالإله سين

وكان شكل سين يتمثل بالخسوف
وقد اعتاد الإساءة للطقوس الدينية وقلب الشريعة
وكان يتكلم بالإساءة إلى النظام الإلهي

لقد اندفع قورش إلى الأمام فوق الجبال، أي جبال كردستان ولوريستان، حتى أصبح المسيطر على المنطقة إلى الشرق من نهر دجلة. ومن هنا أصبح باستطاعته أن يقوم بهجوم على بابل نفسها وهكذا اندفع بهجوم إلى أوبيس Opis وزحف إلى سيبار التي استسلمت له. وبعدها هوجمت بابل نفسها واستسلمت دون دفاع يذكر. ويقول هيرودوتس وهو يصف الانتصار لأنه كان ناتجاً عن الاستراتيجية التي اتبعها قورش وهي إحداث ثغرة في نهر الفرات، الذي كان يؤلف جانباً من خط الدفاع عن المدينة وعندما انخفض مستوى الماء في الفرات، وبذلك أصبح من الممكن عبور مجرى مياه النهر. وليس هناك من سبب لتكذيب هذه القصة. ولكن السبب الحقيقي لسقوط المدينة ليس ضعف الدفاع إنما وجود الطابور الخامس داخل المدينة. وذلك لأن محاولة نابونيد للشك في سلطة مردوخ أورثه إرثاً من الكراهية. وهكذا فإن الدعاية التي قام بها قورش قد وجدت أرضاً خصبة بين مواطني بابل وهكذا فقد نقلوا ولاءهم ويسرور إلى الملك الفارسي ذي العقل الحر المتثور. وهكذا دخل قورش المدينة التي منع النهب والسلب فيها بتاتاً، ولم يتطرق إلى المؤسسات الدينية ولا إلى الحكم الإداري فيها، بل عين ممثلاً فارسياً حاكماً فيها. ولقد احتفل ابن قورش الأصغر وهو قميبيز بعيد الميالد للسنة الجديدة في بابل وهكذا حصلت أسرته على مباركة الإله مردوخ، وهكذا فقد حصل قورش على ملكية بابل ليس بفضل النصر العسكري بل بفضل العناية الإلهية.

وهكذا انتهت آخر الأسر الوطنية القديمة في بابل وآشور وقد استمر الحكم الفارسي في بابل حتى عام ٣٣١ ق.م. وبعدها وحتى نهاية السنة الألف أصبحت منطقة ما بين النهرين تحت سلطة السلوقيين (اليونان) و(البارثيين) والحقيقة أن أجزاء عديدة من منطقة ما بين النهرين قد حكمتها مؤقتاً قوات أجنبية من قبل ولكن الحكم الفارسي أتى في وقت شعر الناس فيه بنشوء وولادة قوى جديدة في الشرق الأدنى وأن الحضارة القديمة التي دامت حوالي ألفي عام في بابل، وبعرض النظر عن الاعتبارات السياسية، هذه الحضارة قد انتهت...

هذا ولقد تطرّقنا إلى ذكر الحقيقة التي مفادها عدم جدوى الاعتقاد البابلي القديم بوحدة الوجود مع محاولة نابونيد للإصلاح وأن هناك شواهد وافرة من الفترة الآشورية الجديدة التي يدعوها العالم سودن Sodan الميل للعملة، وفوق ذلك فإنه ومنذ نهاية الألف اخترقت عوامل النفوذ الآرامي بابل بقوة شديدة اشتملت على المؤسسات الاجتماعية واللغة، وبالنسبة للمؤسسات الاجتماعية فقد كان ذلك عن طريق تأكيد المؤسسات القبلية فقد كانت تسعى لإضعاف نظام الدويلات - المدن القديمة. أما بالنسبة للغة، فقد كانت اللغة الآرامية هي ذات الأفضلية لكونها اللغة الوطنية لجماعة عرقية واسعة الانتشار وتتفوق على اللغة الأكادية وفوق ذلك فقد كانت الحروف الهجائية الآرامية بما فيها من اثنين وعشرين حرفاً تعتبر أسهل كوسيلة من وسائل التواصل من اللغة الأكادية المسمارية التي كانت تحتوي ستمائة إشارة وحتى وبينما كانت الكتابة الأكادية المسمارية المكتوبة على ألواح من الصلصال لا تزال الوسيلة المستخدمة لكتابة الوثائق الرسمية، إلا أن الكتابة الآرامية كانت تستعمل أحياناً كطريقة مناسبة للمصادقة والموافقة على ألواح ذات أغراض تصنيفية وهذا أمر لا يستطيع عمله سوى العلماء بعد قضاء عدة سنوات من الدراسات، ومن إجادة استعمال الأحرف الأكادية المسمارية. ولقد بقيت الأحرف المسمارية مستعملة من قبل العلماء لأغراض مدرسية وأغراض خفية مدة بضعة قرون ولكن هذه الأحرف وهذه اللغة قد اختفت تماماً ما عدا عند بعض الكهنة الذين استخدموها لأغراض دينية لمدة حوالي نصف قرن آخر وذلك ابتداءً من عام ٤٠١ ق م وكذلك بقيت الأحرف المسمارية مستعملة بين بعض علماء الفلك، وقد بقيت الأحرف المسمارية مستعملة لأغراض فلكية حتى زمن المسيح.